الغـــش

هذا الدين قائم على الطهر والنقاء ، والوضوح والصفاء ، والصدق والوفاء ، واضح في أحكامه ، جلي في تشريعاته ، صادق في توجيهاته ، إنه نور يشرق ، وضياء يتلألأ . واضح وضوح النهار ، ساطع سطوع الشمس ، نقي نقاء الماء الزلال . ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ .

[النور : ٣٥]

نور يبدد ظلمات الجهل ، ويطرد غياهب الخنا ، ويمقت دهاليز الرذيلة يرفض الغموض ، ويبغض الالتواء ، ويكره المخادعة ، شعائره لا تؤدَّى في سراديب مظلمة ، ولا زوايا مختبئة ، ولا أنفاق معتمة ، فهو قائم على الوضوح والصفاء في المظهر والمخبر ، والسر والعلن ، والليل والنهار ، وأتباعه يجب أن يجللهم هذا الصفاء ، ويعمهم هذا النقاء ، ويسودهم ذلك الوضوح .

دعاهم إلى جمال الظاهر ، وحسن السمت ، وروعة الهندام ، وطهارة البدن ، وأمرهم بصفاء النفس ، وطهارة الفؤاد ، ونقاء القلب وسلامة الصدر ، والصدق في القول والعمل ، بل جعلها هي الأصل ، وبين أنها محل نظر الرب فقال : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم

ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» [مسلم : ٢٥٦٤] .

ولقد حذّر القرآن الكريم ، وحذّر النبي ﷺ من كل الصفات التي تنافي جمال الظاهر والباطن ، وتخالف صدق المظهر والمخبر ، وتتنافى مع صفاء الدين ووضوح الشرع ونصاعة المنهج ، ومن أسوأ الصفات التي نهى عنها الإسلام وحذّر منها الدين : ***الغش*** .

الغش كلمةٌ مأخوذة من الغشش وهو المشرب الكدر ، وللكلمة معانٍ عدة متقاربة ، فالغش بمعنى عدم النصح ، وبمعنى الغل والحقد ، وبمعنى ما يخلط من الرديء بالجيد ، وبمعنى سواد القلب وعبوس الوجه .

ومفهوم ***الغش*** مفهوم واسع ، فهو ليس فقط في البيع والشراء ، بل هو أشمل من ذلك وأعم ، فكل ما لم يصدق فيه المرء من نية أو قول أو عمل فهو غش ، والغش بكل أنواعه وجميع أقسامه يشمله حديث من جوامع كلمه ﷺ وهو قوله : «من غش فليس منا» [صحيح الجامع : ٦٤٠٦] فهذا تبرؤٌ من الغاش ، وتنكّر للخائن ، وثورة في وجه المخادع .

إن ***الغش*** من كبائر الذنوب ، وعظائم المعاصي ، وفظائع الخطايا ، يدل على خبث النفس ، وظلمة القلب ، وسواد الفؤاد ، وقلة الدين وسنوجز القول في بعض أنواع الغش لنبين فداحة أمره ، وسوء عاقبته وخبث سبيله .

أولاً : الغش للنفس :

إن أعظم أنواع الغش أن يغش الإنسان نفسه فلا يصدق لها في

النصيحة ، ولا يقيمها على الدين ، ولا يهذبها بالشرع ، ولا يزكيها بالهدى ، وقد قال تعالى : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ .

[الشمس : ١٠]

فالذي غش نفسه مصيره الخيبة وعاقبته الخسران ﴿ **أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ [آل عمران : ١٦٢] .

ثانياً : الغش في البيوع والمعاملات :

هذا ميدان الغش الواسع ومجاله الفسيح ، تزل فيه الأقدام ، وتكثر فيه الآثام ، ويتهاوى فيه الأنام إلا من رحم الملك العلاّم .

انظر إلى أرباب التجارة وأصحاب الحرف وذوي المهن وملاّك البضائع، قليل منهم من يصدق في تجارته ، وينصح في بضاعته ، ويخلص في مهنته ، أما الأغلبية الساحقة فغش وخداع ، وزور وبهتان ، وكذب وخيانة ، وغدر وتغرير ، وبخْسٌ وتزوير .

إن ***الغش*** كبيرة من الكبائر ، ومحرّم أشد التحريم ، موجب لمقت الله، جالب لسخطه ، سبب في عقوبته ، إنه أكل للمال بالباطل ، وإنبات للجسم من الحرام والسحت ، وأيما جسم نبت من حرام فالنار أولى به .

إن المجال لا يسمح لعرض كثير من أنواع الغش في البيوع والمعاملات فهي أكثر من أن تحصى ، ولكن الحلال بيّن والحرام بيّن ، والإثم ما حاك في النفس وكرهت أن يطّلع عليه الناس .

قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن**

﴿تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ . [النساء : ٢٩]

فنهى سبحانه عن أكل الأموال بالباطل والغش من الباطل ، وبيّن أن التجارة لا تحمد ولا تحل إلا إن كانت عن التراضي من الجانبين والموافقة من الطرفين ، وذلك لا يكون إلا بالصدق في البيع والبعد عن الغش والسلامة من الكذب .

كم من مسلم جمع أمواله وضيق على نفسه ومكث عمراً طويلاً يضع الريال على الريال أو الدرهم على الدرهم ليشتري سلعة يستعين بها في مسيرة حياته ، ويصون بها نفسه ، ويسعد بها أهله من عقار أو سيارة أو آلة .. أو غير ذلك ، ثم يضع ثقته في إنسان يتوهم فيه التدين ، ويظن به الخير ، فيوهمه بروعة السلعة ، وحسن فائدتها ، وعظم جودتها وزهادة سعرها ، وقد يغلف ذلك الكلام بأيمان مغلظة ، وحلف فاجر ، وبتمثيل خبيث ، وهو قد دَسَّ السم في العسل ، ونوى على الغش والدغل ، فينخدع له المسلم ، وينفر به المؤمن ، فيقع في الفخ ، ويذهب ضحية الغش ، ويبقى على الغاش الجرم والإثم ، واللعنة والسخط ، والبغض والمقت .

يقول ﷺ : «المسلم أخو المسلم ولا يحل لمسلم باع من أخيه بيعاً فيه عيب إلا بينه له» [صحيح ابن ماجة : ١٨٣٧] .

ويقول ﷺ : «من غشّنا فليس منا والمكر والخديعة في النار» .

[حسّنه الألباني في الإرواء : ١٣١٩]

ويبين ﷺ أن كتم العيب في السلعة والكذب في البيع محق للبركة قد يربح المرء ولكنه ربح منزوع البركة قليل الثمرة كبير الإثم فيقول : «البيّعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدق البيعان وبيّنا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا فعسى أن يربحا ويمحقا بركة بيعها» .

[متفق عليه من حديث حكيم بن حزام وهو في الإرواء : ١٢١٨]

ومرّ ﷺ على رجل وبين يديه صُبْرة طعام يبيعها وقد حسّنها فأدخل يده فيها فنالت أصابعهُ بللاً . فقال : «ما هذا يا صاحب الطعام؟» ، قال: أصابته السماء يا رسول الله ، قال : «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس ، من غشّ فليس مني» [أخرجه مسلم والسياق له وهو في الإرواء : ١٣١٩] ألا يكفي الغاش تهديداً تبرؤ الرسول ﷺ ، ومن تبرأ منه رسول الله ﷺ فقد تبرأ منه الله وتبرأ منه الدين ، انظر إلى أحوال كثير من الباعة وكيف يعرضون الفواكه ويبيعون الثمار فيجعلون أعلاها حسناً جميلاً ، ويكون الذي في الأسفل رديئاً مغشوشاً .

ومن صور الغش في البيوع : بخس الكيل والميزان . قال تعالى : ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ① الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ** ﴾ [المطففين : ١ - ٣] .

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : « لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً – يعني أهل المدينة – فأنزل الله عز وجل ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ** ﴾ فأحسنوا المكيال بعد ذلك» [صحيح ابن ماجة : ١٨٢٢] .

وقد عدّ بعض العلماء ترك مكافأة من يستحق المكافأة من التطفيف لأنه بخس لحقه.

ويقول ﷺ : «إذا وزنتم فأرجحوا» [صحيح الجامع : ٨٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] .

ومن صور الغش في البيوع : إنفاق السلعة بالحلف الكاذب ، قال ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم» ، فذكر منهم : «رجلاً باع رجلاً سلعة بعد العصر فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا فصدقه وهو على غير ذلك» [متفق عليه] ، انظر إلى هذا الحديث وقِسْه على أحوال الناس اليوم ولا سيما بعد العصر وما يحدث في معارض السيارات وأنواع (الحراجات) .

قال الإمام الشعبي – رحمه الله – : إن رجلاً أقام سلعته أول النهار فلما كان آخره جاء رجل يساومه فحلف : لقد منعها أول النهار من كذا وكذا ، ولولا المساءُ ما باعها منه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٧٧] .

ما أكثر ما تسمع اليوم : (والله لقد جاني فيها كذا وكذا) ، (والله لو غيرك ما يأخذها بهذا المبلغ) ، (والله ما أعطيتك بهذا السعر إلا استفتاح الصباح) .. إلى غير ذلك من أنواع الحلف الكاذب ، والغش الفاضح .

ومن صور الغش في البيوع : ***التناجش*** ، وهو نوع من أنواع المكر والختل والخديعة ، وهو بمعنى أن يزيد الرجل في ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها ، ولكن ليسمعه غيره فيزيد بزيادته ، وقد نهى ﷺ عن النجش وقال : « لا تناجشوا » [انظر صحيح الجامع : ٧٢٤٢] ، فهو حرام وخداع وتغرير بالمشتري وأيُّ مالٍ أو ربح حصل عن طريقه فهو مال حرام ، وكسب باطل.

أرسل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عاملاً له يبيع له بيعاً فلما باعه وعاد قال : لولا أني كنت أزيد فأنفقه لكان كاسداً ، فقال له عمر : هذا بخس لا يحل فبعث منادياً ينادي : إن البيع مردود ، وإن البيع لا يحل .

ولقد كان هذا ديدن السلف – رضي الله عنهم – فهم بعيدون عن الغش ، منزهون عن الكذب ، مترفعون عن الخداع ، مصونون من أكل الحرام .

كان لأبي بكر رضي الله عنه غلام يخرج له الخراج ، وكان أبو بكر يأكل من خراجه ، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر ، فقال له الغلام أتدري ما هذا فقال أبو بكر : وما هو؟ قال : كنت تكهّنت لإنسان في الجاهلية ، وما أحسن الكهانة إلا أني خدعته فأعطاني بذلك ، فهذا الذي أكلت منه، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه .

إن أمة يشيع فيها الغش ويكثر فيها الخداع ويظهر فيها الكذب ، لهي أمُّة معرّضة للسخط ، بعيدة عن التوفيق ، محرومة من النجاح ، تعاقب

في الدنيا قبل الآخرة ، تحل بها الكوارث ، وتنزل بها المصائب ويسلط عليها الأعداء ، يقول ﷺ : « خمس خصال إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة في قوم قط فيعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا – وتأمل اليوم : الزهري والسيلان والإيدز والسرطان وتليف الكبد .. وغيرها – ولم ينقصوا الكيل والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان، ولم يمنعوا زكاة أموالهم رلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلّط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم » .

[صحيح ابن ماجة : ٣٢٦٢]

ثالثاً : الغش في النصيحة :

وذلك بعكس الصدق في النصح والإخلاص في التوجيه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال ﷺ : « الدين النصيحة » قالوا لمن؟ قال: « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » . [رواه مسلم : ٥٥]

ومن النصح للمسلم أن تحب له وتنصح له بما تحب لنفسك ، قال ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه – أو قال لجاره – ما يحب لنفسه » [رواه مسلم : ٤٥] .

رابعاً : الغش في الدعوة إلى الله :

وأكثر ما يحدث ذلك في بعض الجماعات وأرباب الحزبيّات ، الذين

يبينون للمدعو أنهم هم أهل الحق وذوو الصدق ، وأن ما عداهم زور وبهتان وباطل وخسران ، فالقول قولهم والرأي رأيهم والطريق طريقهم ، من مشى مع غيرهم فقد ضل ، ومن استمع لسواهم فقد غوى ، فتنبت دواعي الحقد ، وتقوى عوامل الفرقة ، وتشتعل نيران الشتات ، والصدق في الدعوة أن تكون خالصة لله ، ملتزمة بهداه ، مقصوداً بها رضاه . ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

[فصلت : ٣٣]

خامساً : الغش في الوظيفة :

وذلك يكون من الموظف بالتقصير في وظيفته ، وعدم القيام بحقها ، وعدم الصدق والنصح لمن وضعه فيها وأقامه عليها ، ويكون الغش باختيار الموظف أيضاً ، وذلك بعدم النصح في اختياره وإسناد الأمر إليه وهو ليس أهلاً له ، ولا مستحقاً إياه .

وصور الغش في الوظائف كثيرة : الغش في عدم العدل بين الموظفين، الغش في الترقيات ، الغش في الترشيحات ، الغش في النقولات ، الغش في المسابقات ، الغش في التقارير . .

سادساً : الغش في المدارس :

وذلك بإعطاء الطالب ما لا يستحق وتقديمه على من هو أفضل منه أو إخباره بالأسئلة ، والذي يفعل ذلك يغش نفسه ، ويغش المدرسة ، ويغش الطالب ، ويغش الدولة ، ويغش الأمة ، ويكون كذلك من الطالب الذي يغش في الامتحان ، فكلها من الغش المحرم ، ومن غشنا فليس منا .

سابعاً : الغش للرعية :

وهذا من أعظم أنواع الغش ومن أشدها عقوبة وأكثرها حرمة وأكبرها خطراً ، يقول ﷺ : « ما من عبدٍ يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرّم الله عليه الجنة » [متفق عليه] ، وهي تشمل كل راعٍ : الوالي في ولايته ، والرئيس في رئاسته ، والمدير في إدارته ، والرجل في بيته ومع أهله وأبنائه ، والمرأة في بيتها ومع زوجها وأبنائها ، والغش للرعية من كبائر الذنوب ، وغش الرعية يكون بعدم حكمهم بما أنزل الله، وترك أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وعدم إعطاء كل ذي حق حقه ، وعدم النصح لهم ، وعدم إحسان تربيتهم ، وإقامة العدل فيهم ، وكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال : ٢٧] .

إن الغش يجمع أسوأ الصفات ، وأقبح المعاصي ، فهو يجمع الكذب والبتهان ، والزور ، والخداع ، والمكر ، والاحتيال ، والنصب ، وخيانة الأمة ، والتغرير ، وأكل المال بالباطل ، وعدم الرضا بقدر الله ، وما قسم من الرزق إلى غير ذلك من ذميم الأخلاق ، وسيئ الخصال ، فهو ظلمات بعضها فوق بعض ، أجارنا الله وإياكم من أهله وحفظنا من أربابه .

الرشـــــوة

لا أحـد أعلمُ بما ينفع الناس من ربهم ، ولا أحـد أعـرف بما يُصلح الخلق من خالقهم ، فهو العليم الحكيم ، اللطيف الخبير ، السميع البصير خلق الخلق لعبادته ، ودلهم لهدايته ، أنزل الكتب ، وأرسل الرسل ، فبين للناس ما ينفعهم ، ودلهم على ما يسعدهم ، وحذّرهم مما يضرهم ، ونهاهم عما يشقيهم ، فما أمر الإسلام بشيءٍ إلا وفيه السعادة والرضا ، والكرامة والهدى ، وما نهى عن شيء إلا وفيه التعاسة والشقاء ، والضلالة والبلاء ، أمر من الأخلاق بأكملها وأجملها ، وأتى من التعاليم بأفضلها وأسهلها ، وقضى من الأحكام بأقومها وأعدلها ، فهو الدين العظيم ، والنهج الحكيم والصراط المستقيم : ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

إن هذا الدين قد حذر من صفات مقيتة ، وأفعالٍ مشينة ، وأخلاق ذميمة ، إذا أشربها قلب قسا وأظلم ، وإذا ارتضاها مجتمع خرب وتهدم وفسد وتحطّم ، صفات قد يستهين بها كثير من الناس وهي خطيرة ، ويستمرئها فئام من البشر وهي فاتكة ، جالبة للخطر ، مفسدة للبشر ، لا تبقي ولا تذر . ومن تلك الصفات : الرشوة ؛ وما أدراك ما الرشوة ، تلطخ بها أناس ، وعاش بها أقوام ، يسمونها بغير اسمها ، ويلقبونها بغير

لقبها ، يغلفونها بعبارات جذابة ، ويقدمونها بألفاظ خلابة ، فهي : هدية ، وهي إكرامية ، وهي عشان خاطرك ، وهي رمز للحب والتقدير ، وهي بدل أتعاب ، وهي مكافأة ، وإن هي إلا أسماءٌ سموها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان . فالرشوة رشوة وإن تعددت مظاهرها ، وتلونت مناظرها.

والرشوة بمعنى الجعل ، وهي تدل على التسبب للشيء برفق وملاينة والمراشاة بمعنى المحاباة . والراشي هو الذي يعطي من يعينه على الباطل ، والمرتشي هو الآخذ للرشوة ، والرائش هو الذي يسعى بينهما يستزيد لهذا ويستنقص لهذا ، وأصل معنى الرشوة مأخوذ من الرشاء الذي يُتوصل به إلى الماء ، قال الأعشى :

سمعت برحب الباع والجود والندى
فأوليت دلوي فاستقت برشائكا

ومن تعريفات الرشوة أنها ما يعطيه الشخص لحاكم أو غيره لإبطال حق أو لإحقاق باطل . وقيل هي بذل المال فيما هو غير مستحق على الشخص ، ولا شك أن الرشوة تتباين درجاتها ، وتختلف مستوياتها ، فمنها ما هو شديد الحرمة ، بل قد يصل عند بعض العلماء إلى الكفر إذا كانت في تغيير حكم الله تعالى : ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [المائدة : ٤٤] .

يقول ابن مسعود رضي الله عنه الرشوة في الحكم كفر ، وهي بين الناس

سحت . ومن الرشوة ما هو أقل خطراً وأخف ضرراً من ذلك ، وأقل ما يمكن أن يقال في بعض أنواعها أنها شبهة ، ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه . يقول ابن الأثير – رحمه الله – : وأما ما يعطى توصلاً إلى أخذ حق أو دفع ظلم فغير داخل في الرشوة .

تحريم الرشوة :

قال تعالى : ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة:١٨٨].

قال القرطبي – رحمه الله – : «والمعنى : لا تجمعوا بين أكل المال بالباطل ، وبين الإدلاء إلى الحكام بالحجج الباطلة» ، وقيل المعنى : لا تصانعوا بأموالكم الحكّام وترشوهم ليقضوا لكم على أكثر منها .

وقال أبو حيان في هذه الآية : «يجوز أن تكون المناسبة بين هذه الآية وآية الصيام قبلها أنه سبحانه لما أوجب عليهم الصوم كما أوجبه على الذين من قبلهم خالف بين أهل الكتاب وبينهم فأحل لهم الأكلَ والشربَ والجماعَ في ليالي الصوم ، ثم أمرهم ألا يوافقوهم في أكل الرِّشاء من ملوكهم وسفلتهم» .

وقال الذهبي – رحمه الله – : لا تدلوا بأموالكم إلى الحكام : أي لا تصانعوهم بها ولا ترشوهم ليقتطعوا لكم حقاً لغيركم وأنتم تعلمون أن ذلك لا يحل لكم .

أما الأحاديث فيكفي تهديداً وتهويلاً وتخويفاً من أمر الرشوة أنه ﷺ : «لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي والرائش» .

[صححه الألباني في الإرواء : ٢٦٢١]

قال العلماء : إنما تلحق اللعنة الراشي إذا قصد بها أذية مسلم أو ليُدفع له بها ما لا يستحق ، أما إذا أعطى ليتوصل إلى حق له ، أو ليدفع عن نفسه ظلماً أو خطراً فإنه غير داخل في اللعنة ، أما الحاكم فالرشوة عليه حرام سواء أبطل بها حقاً أم دفع بها ظلماً .

ويقول ﷺ : « من شفع لأخيه شفاعة فأهدى له هدية عليها فقبلها فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الربا» [صحيح الجامع : ٦٣١٦] . إنه ﷺ يقدم بهذا الحديث درساً تربوياً عظيماً ، فهو يعلم أن بعض المسلمين قد يحتاج إلى شفاعة من أخيه فإذا شفع له وتحقق الأمر على يديه فإن المشفوع له قد يحرج فيتكلف بهدية لتكون مكافأة لأخيه على شفاعته له . وهو بهذا التوجيه لا يريد للمشفوع له أن يتكلف ولا يريد للشافع أن ينقص أجره . وأهم من ذلك كله بثّ روح العزة والارتفاع عن الدنيا وعدم تعليق نفع الناس والإحسان إليهم بحطامها بل يجب أن يكون سعي المسلم كله يرتجى فيه المثوبة والأجر من الله تعالى ، فإذا سادت هذه الروح في المجتمع زاد أمنه واستقراره وصلحت النفوس ، وساد الحب والوئام والتعاون والتراحم وأصبحوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الجسد بالحمى والسهر .

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه : السحت أن تطلب لأخيك الحاجة فتقضى

فيهدي إليك هدية فتقبلها .

ويقول : من رد عن مسلم مظلمة فأعطاه على ذلك قليلاً أو كثيراً فهو سحت ، فقال الرجل : يا أبا عبد الرحمن ، ما كنا نظن أن السحت إلا الرشوة في الحكم ، فقال : ذلك كفر نعوذ بالله منه .

ويلفت النظر ﷺ في حديث آخر إلى مسألة مهمة أيضاً وهي أن بعض الناس قد يكون في منصب أوإمارة أو مسئولية فيجامله الناس لأجل ذلك المكان ، فيقبل الهدايا والعطايا ويستجيزها لنفسه ويعتبرها من أملاكه الشخصية .

استعمل ﷺ رجلاً من أصحابه على أحد البلدان فلما قدم قال : هذا لكم وهذا أهدي لي . فقام رسول الله ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « ما بال عاملٍ أبعثه فيقول : هذا لكم وهذا أهدي لي ، أفلا قعد في بيت أبيه أو في بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده لا ينال أحد منكم شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه ، بعير له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تَيْعر» ، ثم رفع يديه حتى رأينا عُفرتي إبطيه ثم قال : « اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟ » [رواه مسلم : ١٨٣٢] .

لقد عجب العالم من موقف إحدى الدول حينما انتهت فترة رئاسة أحد الرؤساء فقام بتجميع الهدايا والعطايا التي قدّمت له ليحملها معه إلى بيته فأمروه أن يعيدها مكانها وأن لا يأخذ منها شيئاً ، فقال هذه أهديت لي ، قالوا : ما أهديت لك إلا لأنك في منصب الرئاسة فهي

ملك للدولة وليست لك .

إن هذه هي أخلاقنا وهي تعاليم ديننا وتوجيهات نبينا ﷺ ، وهي النهج الذي سار عليه الصحابة – رضي الله عنهم وأرضاهم – لقد صادر عمر بن الخطاب رضي الله عنه إبلاً لابنه عبد الله ولم يسمح له بامتلاكها والمتاجرة فيها خوفاً من أن الناس يجاملونه ويقدمونه ويقدمون إبله في الطعام والشراب والمرعى لأنه ابن أمير المؤمنين ، بل لقد كان يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لا تولوا اليهود والنصارى فإنهم يقبلون الرشا ولا يحل في دين الله الرشا » ، لقد ذمّ الله اليهود بقوله : ﴿ **سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ** ﴾ [المائدة : ٤٢] ، والرشوة من السحت .

إن الرشوة من كبائر الذنوب ، ومما يجلب سخط علام الغيوب ، وهي حرام بإجماع المسلمين ، سواءً كانت للقاضي أو للقائم على بيت المال أو لأي عامل في وظيفة من وظائف الدولة . إن الإسلام يحرمها لأنها أكل للمال بالباطل ، وشيوعها في المجتمع شيوع للفساد والظلم . إن الدولة تشتري من الموظف جزءاً من وقته للقيام بمصالح المسلمين ، وذلك مقابل راتب يتقاضاه ، فذلك الوقت لا يجوز صرفه في غير هذا العمل ولا يجوز أخذ أموال من الناس لإنهاء أمورهم التي كلّف لإنجازها وأعطي مرتباتها .

إن الرشوة تقلب الحق باطلاً والباطل حقاً ، وترفع الوضيع ، وتضع الرفيع ، وتذل العزيز ، وتعز الذليل ، تقدم من يستحق التأخير ، وتؤخر من يستحق التقديم ، تقدم السفيه الخامل ، وتبعد المجد العامل، وهي مهدرة للأموال ، جالبة للظلم ، داعية للبغضاء ، مثيرة للشحناء ، معطلة

للمصالح ، مُجَرِّئةٌ للظلمة والمفسدين ، تساعد على الإثم ، وتعين على العدوان ، وتدفع إلى الإجرام ، تهين الكريم ، وترفع اللئيم ، تبطل حجة المحق ، وترفع حجة الكاذب .

وكنت إذا خاصمت خصماً كببته
على الوجه حتى خاصمتني الدراهم
فلما تنازعنا الحكومة غُلِّبت
عليّ وقالت قم فإنك ظالم

ليس هناك أجمل ولا أفضل ولا أعز ولا أكرم من المؤمن حينما يمتثل أمر ربه ويبتعد عن سخطه ، انظر إلى القاضي أو المسئول أو الموظف في أي جهة كانت ، انظر إليه إذا قام بواجبه وأخلص في عمله وسعى في قضاء الحاجات وإنهاء المعاملات وعدل في الخصومات ، وكان مع ذلك تقياً نقياً زكياً عفيفاً لا يطمع في أحد ولا ينظر إلى أحد ، كم من المناقب يجنيها ومن المحاسن يرتديها؟ .

فهو أولاً أرضى ربه وقام بأداء الأمانة ، وثانياً استحل راتبه واستحق أجره ، وثالثاً أرضى ضميره وأراح قلبه ، ورابعاً كسب ثقة من ولاه ، وخامساً كسب الثناء والدعاء من الناس ، وسادساً ادّخر أجره كاملاً عند الله ، وسابعاً وهو من أهمها أنه صان نفسه وحفظ ماء وجهه ، فبقي عزيزاً معززاً كريماً مكرماً .

إن المجتمع إذا شاعت فيه هذه الصفة فهي مؤذنة بفساده ، معلنة عن دماره ، واضعة لقدره ، مذلة لكرامته ، ممتهنة لعزته ، كم يكون من

الإكبار والإجلال والإعزاز لبلدٍ لا يعرف رشوة ، ولا يقبل تزويراً ، صاحب الحق يأخذ حقه ، وصاحب العمل يقوم بواجبه دون تطلّع لأحد أو استشراف لعطاء ، تشعر فيه بالراحة وتجد فيه الطمأنينة ، وتوقن فيه بالإنصاف ، وكم يكون من الامتهان والاحتقار والضيق بالبلد الذي لا يقوم إلا على الرشوة ، ولا يتحرك إلا بالعطية ، ولا تحصل على الحق إلا بما هو أشق ، يُخدم فيه الراشي ، ويقدم فيه المعطي ، يضيع الحق في زحمة الأموال الباطلة ، ويُحرم الضعيف حقه لأنه لم يقدم رشوة ولم يأت بهدية .

رشوة في الأحكام ، ورشوة في الوظائف ، ورشوة في الحقوق ، ورشوة في المدارس ، ورشوة في المشاريع ، بل قد استساغتها بعض البلدان حتى أصبحت كأنها حق واجب .

إنها مرض عضال ، وداء مزعج ، وخطر فاتك ، ولذلك يجب على العقلاء أن يسعوا في قمعها ، وأن يتعاونوا لدحضها ، وأن يجتهدوا لتمزيقها .

إن الدولة حينما تضع العقوبات الصارمة والجزاءات الرادعة لكل من يتعاطى الرشوة فهي بذلك تحفظ كيانها وتحمي بنيانها وتصون كرامتها ، وتعين كل ذي حق لأخذ حقه ، وتقمع كل ذي باطل من تحقيق باطله ، فتنال بذلك رضا ربها ، وتسعد في دنياها وآخرتها .

قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾

[الأنفال : ٢٧]

الإســـراف

ديننا العظيم نهانا عن صفات ذميمة ، وأفعال مشينة ، وأخلاق بغيضة ، وما من عمل أو فعل أو قول يمجه العقل ، وتأباه الفطرة ، ويتحاشاه ذوو الألباب إلا وهو ممقوت في الإسلام ، ممنوع في الشرع ، فالله جل وعلا لم يحرّم على الناس أمراً فيه صلاحهم ، ولم يحذرهم من فعل فيه فلاحهم ، بل نهاهم عن كل مدمّر لأخلاقهم ، ومفسدٍ لحياتهم ، ومضرٍّ لأبدانهم ، ومهلكٍ لأموالهم ، ومتلف لأحوالهم .

وإن من الصفات البغيضة في شرعنا ، الممقوتة في ديننا : الإسراف ، والإسراف هو تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان ، بل يشمل حتى الأمور المعنوية ، فكل ما زاد عن الحد من فعل أو قول أو فكر فهو إسراف، والتبذير والإسراف بمعنىً واحدٍ تقريباً ، إلا أن الإسراف أعمّ من التبذير .

وأغلب ما يطلق الإسراف في الأموال والإنفاق والبذل ، والإسراف فيها هو تجاوز الحد في النفقة . فالإنفاق الممدوح والبذل المحمود شرعاً هو فيما أوجب الله جل وعلا على المسلم من الزكاة والصدقة والإنفاق على الأهل والعيال ، والإنفاق في أبواب الخير الكثيرة ، والمسلم المقتدر لا يعد مسرفاً إذا أكثر من البذل والإنفاق وجاد بالمال في وجوهه المشروعة : ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبا : ٣٩] .

ويقـول ﷺ : «لا حسـد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مـالاً فـسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها» .
[صحيح الجامع : ٧٤٨٨]

ولكن الإسراف هو في تجاوز الحد في الأمور المباحة للإنسان من ملبس ومطعم وكـسـوة ، والإسـراف هو في تبـديد المال كله حـتى ولو كـان في طاعة ، فلا يجدر بالمسلم أن يُذْهِب كل أمواله ، ويتلف ما لديه ، ويبقى صفر اليدين عالةً على الناس حتى ولو أنفقها في حلال والنبي ﷺ نهى الرجل أن يتصدق بماله كله وأجاز له الثلث ، وقال له : «والثلث كثير ، إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم . .» [البخاري : ٢٧٤٢] .

بل انظر إلى لفتة عظيمة ، وإشارة بديعة ، ونكتة لطيفة في هذه الآية يقول تعالى : ﴿ **كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ [الأنعام : ١٤١] .

أمر بالأكل مما أخرج الله لعباده من الرزق وما آتاهم من الثمرات ، ثم أمرهم بإخراج حقه ، وأداء زكاته يوم حصاده ، وختم الآية بالنهي عن الإسراف ، أي لا تسرفوا ولا تبددوا أموالكم حتى في أداء الحق الواجب فيها ، فالإسلام دين الوسط والاعتدال ، والطريقة المثلى في كل شيء ، أما إنفاق المال فيما حرّم الله فإنه إسراف وتبذير حتى ولو كان درهماً واحداً .

ومما دفعني للحديث عن هذا الأمر في هذه الأيام بالذات هو ما يرى

فيها من مظاهر الإسراف والتبذير ، فهي أيام تكثر فيها المناسبات ، وتتعدد الحفلات ، وأصبح التباهي بالأموال المصروفة ، والصالات المستأجرة ، والموائد الممدودة هو ديدن كثير من الناس في هذه الأيام حتى إن المرء يتحمل أعباءً كبيرة ، وديوناً هائلة من غير ضرورة لها ولا داعٍ لأخذها ، بل لكي يجاري فلاناً وفلاناً ، ولأجل أن يتحدث أناس عن حفلته أو وليمته أو مائدته ، فهذا عرّض نفسه لمحاذير عدّة ، وتعرض لسخط الله وعقوبته وبغضه وكرهه : ﴿ **إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ وعرض نفسه وأبناءه للمذلة والفقر وغلبة الدَّين وقهر الرجال ، ثم هو مع ذلك مذموم عند الناس ، فمن طلب رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس .

فيجب على المسلم أن يراقب ربه أولاً وأخيراً ، ثم يسير على قدر حاله ولا يحمل نفسه ما لا تطيق .

ومن مظاهر الإسراف في هذه الأيام ما ينفقه كثير من الناس على أسفار متعددة ورحلات متنوعة لا قبل لهم بها ، ولا حاجة لهم فيها ، بل قد تكون مصحوبة بالمعاصي محفوفة بالأخطار ، مليئة بالأضرار .

إن الترويح محبوب ، وإدخال السرور على الأهل مطلوب ، والسياحة في أرض الله أمر مرغوب ، ولكن أن يكون ذلك في حدود معقولة ، وبضوابط مشروعة ، فلا يتكلف ما لا يطيق – فإن بعض الناس يستدين ليسافر – ولا يعرض المرء نفسه وأهله للفتنة ، ولا يجرهم للمحن ، ثم يظن أنه قد أحسن إليهم ، وأُجر في الإنفاق عليهم :

﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

أيها المسلمون .. يجب أن نعود أنفسنا على الاقتصاد في كل أمورنا وأن نحذر أنفسنا وأهلنا وأبناءنا من الإسراف والتبذير ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء : ٢٧] .

إن الإسراف ظاهر في كل أمور حياتنا تقريباً - إلا من رحم الله - إسراف في إنفاق المال ، إسراف في المباحات ، إسراف في الولائم ، إسراف في المياه ، إسراف في الكهرباء ، إسراف في تزيين البيوت ، إسراف في حفلات الزواج ، إسراف في الأكل والشرب : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ .

إن المباهاة بالعمائر والمزارع والمراكب الفارهة ، والتنافس في ذلك ليس من سمات المؤمنين لأنهم يعلمون أن الحياة مرور ، والمسألة عبور: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ .

[الشعراء : ١٤٦ - ١٥٢]

إن الإسراف عاقبته وخيمة ، ونتائجه أليمة ، وتبعاته عظيمة ، وإذا كان المسلم نُهي عن الإسراف حتى في الأمور المباحة بل في الطاعات الواجبة فكيف به في غير حاجة . انظر إلى هذا الحديث العظيم :

جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يسأله عن الوضوء ، فأراه الوضوء ثلاثاً

ثلاثاً ، ثم قال : « هكذا الوضوء ، فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم » [صحيح النسائي : ١٣٦] .

فالزيادة على الحد حتى في الطاعة تعتبر إساءةً وتعدياً وظلماً ، وكيف بمن يفتحون صنابير الماء سواء في بيوتهم أو في المساجد على أقصى ما يمكن فيصرفون من الماء ما يتوضأ به عشرون شخصاً ، وإن المرأة التي تصرف في مطبخها من الماء ما يكفي لبيوت عدّة لهي من المسرفين .

إن بث روح النظام والاعتدال والوسطية والبعد عن الإسراف لهي سمة حميدة يجب أن يقوم بها كل مؤمن ، يقول ابن عباس – رضي الله عنه – في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴾ [سبأ : ٣٩] يعني في غير إسراف ولا تقتير .

إن قاعدة الوسطية هي أفضل وأكمل ما يسير به المسلمون ، ويمضي عليه المؤمنون الذين امتدحهم تعالى بقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً** ﴾ [الفرقان : ٦٧] .

إن أكمل وأفضل ما يسير عليه المؤمن هو ما رسمه الله تعالى له بقوله : ﴿ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا** ﴾ [الإسراء : ٢٩] .

وما رسمه النبي ﷺ بقوله : « كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا ما لم يخالط إسراف ولا مخيلة » [حسنّه الألباني في المشكاة : ٤٣٨١] .

إن الإسراف كما أشرنا هو تجاوز الحد في كل فعل من الأفعال ، وليس

ذلك قصراً على الإنفاق فقط ؛ فإن الانهماك في المعاصي ، والتمادي في الذنوب هو من الإسراف المقيت والفعل البغيض : ﴿ **وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ** ﴾ ، قيل هم الذين تجاوزوا وتعدوا حدود الله ، ولكن من رحمة الله تعالى أن المسرف على نفسه متى أعلن توبته ، وندم على فعله فإنه يجد رباً رحيماً غفوراً ودوداً : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ .

[الزمر : ٥٣]

قال رسول الله ﷺ : « كان رجل يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال لبنيه : إذا أنا مُتُّ فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ذروني في الريح ، فوالله لئن قدر الله عليّ ليُعذّبني عذاباً ما عذّبه أحداً ، فلما مات فُعل به ذلك ، فأمر الله الأرض فقال : اجمعي ما فيك منه ففعلت ، فإذا هو قائم فقال : ما حملك على ما صنعت؟ قال : يا ربِّ خشيتك . فغفر له » .

[البخاري : ٣٤٨١]

وإن ديدن المؤمنين دائماً قولهم : ﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٤٧] .

وكان ﷺ يقول : « اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني » [انظر صحيح الجامع : ١٢٦٤].

ومن أنواع الإسراف وضع الشيء في غير موضعه ، وقد سمى الله تعالى فعل قوم لوط إسرافاً : ﴿ **وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم**

بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف : ٨٠ - ٨١] .

ومن أنواع الإسراف : الإسراف في القصاص من القاتل ، قال تعالى : ﴿ .. وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ ، والإسراف في القتل يكون بأحد ثلاثة أمور:

١ - أن يقتل اثنين أو أكثر بواحد كما كان يفعل العرب .

٢ - أن يقتل بالقتيل واحداً فقط ، ولكنه غيرُ قاتله فهو يختار أكبر أو أشرف منه ، وهذا قتل للبريء بذنب غيره ، وهو إسراف في القتل .

٣ - أن يقتل نفس القاتل لكن يمثل به ، لأن زيادة التمثيل إسراف في القتل .

إن الإسراف بكل صوره وأشكاله من إنفاق المال ومن المأكل والمشرب والملبس ومن تجاوز حدود الله تعالى ، ووضع الشيء في غير موضعه ، إنه أمر ممقوت مؤذن بخطر ، ومؤشر بهلاك ، ومعرض لسخط : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر : ٢٨] .

اللهم إنا نعوذ بك من الإسراف وأهله ، والتبذير وأصحابه ، اللهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا إنك أنت الغفور الرحيم ،،،

obeikandl.com

أومن كـــان ميتـــاً

قال الله تبارك وتعالى : ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام : ١٢٢].

هذه الآية الكريمة على قصرها قمةٌ في البلاغة ، وآيةٌ في الفصاحة وروعة في الأسلوب ، وجمال في الكلمات . جمعت المعاني العظيمة في الألفاظ القليلة ، وجمعت من أساليب البلاغة أعظمها ، ومن فنون البيان أحسنها ، ففيها الاستفهام ، وفيها المقابلة ، وفيها ثلاثة تشبيهات ، وفيها استعارة ، ثم هي بمجموعها تصور الصورة المشرقة الوضاءة للإيمان بالله تعالى ، وتصور الصورة القاتمة للكفر به جل وعلا .

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ فالأعظم من الموت الحقيقي للإنسان هو الموت المعنوي ، ذلك بأن يكون الإنسان موجوداً حيّاً سميعاً بصيراً ولكنه ميت ؛ إنه ميّت القلب ، ميّت الضمير ، ميّت الوجدان ، ميّت المشاعر . الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الدائمة في جنان الله تعالى ورضوانه ، فهو موت ، والكفر انقطاع عن نور الله تعالى وهدايته ومعرفته والصلة به فهو موت ، والكفر انطماس لأجهزة الإنسان المستقبلة فهو موت : انطماس للسمع ، انطماس للبصر ، انطماس للأفئدة ، فأي موت إن لم

يكن هذا؟! .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩].

والإيمان اتصال بخالق الوجود فهو حياة ، والإيمان اطمئنان في القلب وجلاءٌ في البصيرة ، ونور في الأبصار فهو حياة ، والإيمان استمداد لمناهج الحياة من موجدها ، واستجابة لخالقها فهو حياة . فالفرق ما بين الكفر والإيمان كالفرق ما بين الموت والحياة .

فالإيمان هو روح الحياة وحياة الروح ، وسر العالم وعالم الأسرار ، وجمال الدنيا ودنيا الجمال ، ونور الطريق وطريق النور .

الإيمان واحة المسافر ، ونجم الملاّح ، ودليل الحيران ، وعدة المحارب، ورفيق الغريب ، وأنيس المستوحش ، ولجام القوي ، وقوة الضعيف . في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله ، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله ، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته ، وصدق معاملته ؛ وفيه خوف لا يسكنه إلا الفرار إليه ، وفيه نيران مسعرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له .

﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ فانظر إلى الصحابة رضوان الله عليهم كيف كانوا قبل الإسلام ، ثم انظر إليهم بعد أن دبَّت روح الإيمان في قلوبهم ،

وتغلغلت حقيقة الإسلام في نفوسهم ، وَجَلَتْ هداية القرآن بصائرهم ، أي حياةٍ عاشوها بعد ذلك؟!.

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ ، والسؤال هو : هل الإنسان الذي كان ميت القلب ، ميت الضمير ، ميت الأحاسيس ، ميت الجوارح ، ثم نفخنا فيه روح الإيمان وأحيينا قلبه وأحاسيسه وجوارحه بالإسلام ، وأمددناه بنور كاشف يجلي له كل ظلمة في طريقه ، ويبدد كل حلكة في سيره ، هل هو مثل الإنسان الميت القلب الميت الأحاسيس الميت الجوارح ؟ وهو مع ذلك يعيش في ظلام حالك ، وليل قاتم ، يتخبط يمنة ويسرة، ولا يدري أين الطريق وأين المخرج من هذه الظلمات ، هل يستوي هذا وذاك ؟ .

الكفر حجاب للروح ، وختم على المشاعر ؛ فهو ظلمة ، وتخبط في الظلال والتيه ؛ فهو ظلمة ، الكفر جهل بالحياة وبموجدها ، وبالآخرة وحقيقتها ؛ فهو ظلمة ، ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ .

[الأنعام : ٣٩]

الكفر ضياع للطريق القويم ، وبعد عن الفطرة السليمة ، وحرمان من الأمن النفسي والاطمئنان القلبي ، فهو ظلمة وقلق .

قال تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ

الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة : ١٧].

أما الإيمان فهو تفتح وإدراك ، ورؤية وصفاء ، وإدراك ومعرفة ، وصلاح واستقامة ، وثبات واطمئنان ؛ فهو نور وضياء .

الإيمان جلاء في البصيرة ، وفهم لحقيقة الحياة ، ومعرفة بالآخرة ، وتسليم بالقضاء والقدر ، وانشراح في الصدر ، وحلاوة في القلب . فهو الحياة ، وهو النور ، وهو الضياء ، وهو الظل الممدود ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور : ٤٠].

الكافر نبتةٌ ضالة لا جذور لها ولا رسوخ ، ولا رابطة تربطها بالوجود ؛ فهو منقطع الصلة بخالق الوجود ، منقطع الصلة بالوجود ، ليس له هدف ، ولا يسعى لغاية ، بل يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام والنار مثوى له .

أما الصلة بالله فهي تصل الإنسان الفاني بالأزل القديم والأبد الخالد ، وتصله بموكب النور والإيمان منذ فجر الحياة ومنذ وجود الإنسان . يجد الإنسان في قلبه هذا النور فيجد الوضوح في كل شأن من شئون حياته ، وفي كل أمر من أموره ؛ يجد الوضوح في نفسه ، في قلبه ، في نواياه . يجد الإنسان نور الإيمان فيجد الوضاءة في خواطره ومشاعره وملامحه ، يجد الراحة في باله وحاله ومآله ، يجد روعة التسليم لله ، والاتباع لأمره والرضا بقضائه وقدره ، فهو حياة هانئة، ونور يتلألأ ، قال سبحانه : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ

رَحِيماً ﴾ [الأحزاب:٤٣].

﴿ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، وهذا تشبيه أيضاً ؛ أي مثل هذا التزيين الذي ورد في الجملة السابقة ، وهو تزيين نور الهدى والدين لمن أحياه الله تلك الحياة المعنوية العالية ، وتزيين الظلمات والضلال والكفر لموتى القلوب ، قد زين للكافرين ما كانوا يعملون من الآثام .

فإن الإنسان إذا ارتضى ظلمة الفكر ، وضلال المنهج ، وانحراف السلوك ، يزين له الشيطان تلك الحياة ، ويرى أنه لا أفضل منها ، وتعجبه تلك الظلمات حتى إنه لو رأى النور لفرّ منه لأنه اعتاد الظلمة وتَشَرَّب الضلالة ، واستمتع بالجهالة . هذه إشارة سريعة ، ولمحة عابرة للمعاني الأساسية في هذه الآية .

ومما يتعلق بهذه الآية من المعاني والأفكار ، والفوائد والتوجيهات ما يلي :

١ – من طريقة القرآن وحسن أدبه أنه في أحيان كثيرة يسند الأمور الطيبة والأشياء المستحسنة ، يسندها إلى الله تعالى مباشرة ، أما الأفعال المشينة أو الأحداث المهولة التي تحمل معاني البأس والانتقام أو غير ذلك من الأمور المكروهة فإنها في الغالب لا تسند إلى الله تعالى مباشرة مع العلم أن كل ما يجري في الكون هو بأمره وتقديره جل وعلا ، فانظر إلى هذه الآية مثلاً في الامتنان بنعمة الحياة والإيمان ، قال : ﴿ فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ فالفضل لله والمنة له جل وعلا ، فهو

الذي أحيا ، أما الكفر والإماته المعنوية فلم يقل تعالى : أو من أمتناه، بل قال : ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا﴾ ، ثم في نور الإسلام وهداية القرآن والامتنان بها قال : ﴿وَجَعَلْنَا﴾ فأسند الجعل إلى نفسه . وفي ظلام الكفر وضلال الفكر لم يقل: كمن مثله من جعلناه في الظلمات ، بل قال : ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ ، فهو الذي ارتضاها لنفسه ، ثم في تزيين الإيمان في قلوب المؤمنين يسنده تعالى لنفسه فيقول : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ .

[الحجرات : ٧]

أما تزيين الكفر وأعماله للكفار ، فيقول تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ﴾ فالشياطين من الجن والإنس هم الذين زيَّنو لهم وأغروهم بذلك ، ﴿وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الانعام : ٤٣] ، ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ .

[النحل : ٦٣]

وهذا كثير في القرآن الكريم ، فانظر إلى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن : ١٠] .

وانظر إلى الفاتحة التي نقرؤها ونرددها كل يوم يقول تعالى : ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ فأسند النعمة له تعالى ، ولا نقول غير الذين غضبت عليهم ، ولا من أضللتهم ، بل نقول : ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ ، وهكذا نجد آيات كثيرة على هذا المنوال تسند الأمور المحببة والمنن المباركة إليه تعالى مباشرة أدباً مع

الله ، وتحبيباً للخلق فيه ، وإشارة إلى مَنِّه وكرمه بكل نعمة .

٢ – كثيراً ما يأتي في القرآن الكريم وصف الكفر وأهله ، والضلال وأتباعه بالموت ، ويأتي وصف الإسلام وأهله والإيمان وذويه بالحياة وهنالك تشبيهات أخرى وردت في القرآن الكريم للكفر والإيمان، فقد شُبِّهتْ بالنور والظلمة ، وبالعمى والبصر ، وبالسمع والصمم ، وبالظل والحرور .

قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ** ﴾ [البقرة : ٢٥٧].

وقال تعالى : ﴿ **مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [هود:٢٤].

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ .

[الأنفال : ٢٢]

وجمعت هذه التشبيهات كلها في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ** ﴾ [فاطر : ٢١].

٣ – حسن المقابلة بين الموت والحياة ، والنور والظلمة .

٤ – أن الآية تحمل في طياتها التذكير بالمنة العظمى من الله تعالى لمن أنار

الله بالإيمان قلبه ، وشرح بالإسلام صدره ، وجعل له نوراً يمشي به في الناس . لا حيرة ولا قلق ، لا تردد ولا شكوك ، لا تخبط ولا ضلال ، لا تيه ولا ظلام ، فتلك نعمة كبرى ، وهداية عظمى ، يجب أن يشكر المولى – جل وعلا – عليها فله الحمد والشكر على الإيمان ، وله الحمد والشكر على الإسلام ، وله الحمد والشكر على القرآن ، وله الحمد والشكر على نعمه كلها ظاهرة وباطنة .

obeikandl.com

الـــدَّيْـــن

مشكلة كبرى ، ومعضلة عظمى ، ظاهرة انتشرت في الناس انتشار النار في الهشيم ، لا يكاد يسلم منها أحد ، ولا ينجو من شرها إنسان ، جثمت على القلوب ، وخيمت على النفوس ، وحَيّرت الألباب ، وفرقت الأصحاب . كم من أذهان بِهَمِّها مشغولة! وكم من عقول لهولها مذهولة! ، وكم من قَدَمٍ لرقها معقولة! ، كم لها من الضحايا! ، وكم أحدثت من الرزايا! ، فما هي تلك الظاهرة المخيفة ، والبلوى العنيفة؟ ، إنها مشكلة «الديون» ، الديون التي أضحى كثير من الناس ضحيتها ، وأمسى عدد من الرجال فريستها ، أقضّتْ مضاجعهم ، وأقلقت حياتهم ونغصت عيشهم ، وأرغمت أنوفهم وخفضت رؤوسهم . إن الغنى نعمة عظمى ، والثراء هبة كبرى ، ومن سعادة الحياة أن يعيش المرء مستغنياً عن الناس ؛ فكم أرغم الفقر أنوفاً!، وكم أذلت الحاجة رؤوساً! ، وكم أتعبت الفاقة نفوساً! ، ولقد تعوذ ﷺ من الفقر والكفر ، وتعوذ من غلبة الدين وقهر الرجال .

يروى أن لقمان قال لابنه : يا بني أكلتُ الحنظل وذقت الصبر فلم أر شيئاً أمرّ من الفقر ؛ فإن افتقرت فلا تحدث به الناس كيلا ينتقصوك ، ولكن اسأل الله تعالى من فضله فمن ذا الذي سأل الله فلم يعطه ، أو

دعاه فلم يجبه ، أو تضرع إليه فلم يكشف ما به؟ .

يروى أن العباس كان يقول : الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس ، وهو عندهم أعذب من الماء ، وأرفع من السماء ، وأحلى من الشهد ، وأزكى من الورد ؛ خطؤه صواب ، وسيئاته حسنات ، وقوله مقبول ، يُرفع مجلسه ، ولا يُملّ حديثه .

والمفلس عند الناس أكذب من لمعان السراب ، وأثقل من الرصاص لا يُسَلّم عليه إن قدم ، ولا يُسأل عنه إن غاب ، إن حضر ازدروه ، وإن غاب شتموه ، وإن غضب صفعوه ، مصافحته تنقض الوضوء ، وقراءته تقطع الصلاة .

يمشي الفقير وكل شيء ضده
والناس تغلق دونه أبوابها
وتراه مبغوضاً وليس بمذنب
ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت ذا ثروةٍ
خضعت لديه وحركت أذنابها
وإذا رأت يوماً فقيراً عابراً
نبحت عليه وكشرت أنيابها

وقال أحد الحكماء : نظرت إلى كل ما يذل القوي ويكسره ، فلم أر شيئاً أذلّ له ولا أكسر من الفاقة .

مـــا الناس إلا مع الدنيـــا وصـــاحـــبِـــهـــا
فكلمـــــا انقلبت يومـــاً به انقلبـــوا
يُعَظّمـــون أخـــا الدنيـــا فـــإن وثبت
يومـــاً عليـــه بما لا يشـــتـــهي وثبـــوا

وكان رجل يمشي في طرقات المدينة متقنعاً وقد تحمل ديوناً كثيرة فرآه أحد أمراء المسلمين ، فقال له : يا فلان إن لقمان كان يقول : القناع بالليل ريبة وبالنهار مذلة ، فقال لـــه : إن لقمان لم يكن عليه دين .

إن الناظر إلى أحوال الناس اليوم يجد أن أكثرهم قد طوقته الديون وعظمت عليه الحقوق ، حتى أصبحتَ لا تكاد ترى رجلاً إلا وهو مدين وإن أكثر الناس اليوم في مظاهر الأغنياء ، ويتزيون بزي الأثرياء ، ولكنهم فقراء ؛ فالمنزل أقام بنيانه بالدين ، والسيارة التي يركبها بالدين ، بل وصل الحال ببعضهم إلى أن أصبح إبريق الشاي وثلاجة القهوة و«البتوجاز» بالدين عن طريق مؤسسات التقسيط ، وهذا خطر عظيم ، ومغامرة رهيبة إن الإنسان بذلك يعرض حياته للذِّلة والنكد ، والتجريح والإهانات ، والسجون والشكايات ، وأعظم من ذلك كله يتعرض للعقوبة العظمى من الله تعالى لو مات وحقوق الناس وأموالهم برقبته .

وكان ﷺ يؤتى بالرجل المتوفى وعليه الدين ، فيسأل : هل ترك لدينه من قضاء ؟ فإن حُدِّث أنه ترك وفاءً صلى عليه ، وإلا قال : صلوا على صاحبكم ، وهذا كان في أول أمر الإسلام ، «فلما فتح الله عليه الفتوح قال : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفي وعليه دين فَعَلَيّ

قضاؤه» [رواه ابن ماجة].

ونفس المؤمن معلقة بدينه حتى يُقضى عنه، وروي عنه ﷺ: «والذين نفسي بيده لو أن رجلاً قتل في سبيل الله ثم أحيي ثم قتل في سبيل الله، ثم عاش ثم قتل في سبيل الله، ما دخل الجنة حتى يقضي دينه».

فلماذا يتهاون الناس بهذه المسألة، ويتجرؤون على الإغراق في الدين والإثقال على النفس، والتحمل لما لا يطاق؟!.

قنعتُ بالقوت من زماني
وصُنت نفسي عن الهوان
خوفاً من الناس أن يقولوا
فَضْلُ فلان على فلان
من كنت عن ماله غنياً
فلا أبالي إذا جفاني

إن كثيراً من الناس قد أثقل نفسه بالدين لغير حاجة، وتحمل الحمالات العظيمة بدون ضرورة، وكثيراً من الناس يؤمّل فيه الخير، ويتوقع منه الأداء فيثق فيه الناس، ويقرضونه أموالهم ثم يتنكر لهم، ويتمرد عليهم، ويمكر بهم؛ كثر غرماؤه، وتعدد خصماؤه، فلا معروف يرد، ولا دين يقضي.

يقول أحدهم وقد كثر غرماؤه:

جاؤوا إلي غضاباً يلفظون معاً
يشفي أذاتهمُ أن غاب أنصاري
لما أبوا جهرة إلا ملازمتي
أجمعت مكراً بهم في غير إنكار
وما جلبت إليهم غير راحلة
رديئة وبسيف غير بتار
إن القضاء سيأتي دونه زمن
فاطوِ الصحيفة واحفظها من الفار

وقال الآخر :

ولو علقتموني كل يوم
برجلي أو يدي في المنجنيق
لما أعطيتكم إلا تراباً
يُطَيَّر في الخياشِمِ والحلوق

وأما الآخر فقد تحمل ديوناً كثيرة فكلما هجم عليه غرماؤه فرّ منهم وقال :

فلو كنت الحديد لكسَّروني
ولكني أشدُّ من الحديد

ويكفي وعيداً لمن يأخذ أموال الناس ، ويقترض من ذوي الفضل؛ ثم لا ينوي أداء الحق وإعادة الدين ، يكفيه وعيداً قول المصطفى ﷺ : «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها

أتلفه الله » [رواه البخاري].

إن لكثرة الديون على الناس أسباباً عديدةً ، وهذا الأمر يحتاج إلى كثير عناية ، وإلى عظيم دراسة ، ولكنني أجمل بعض الأسباب التي تجعل كثيراً من الناس مُسْتَرقّين بِرِقِّ الدين ، ومنها :

١ – محق البركة في الرزق ، بحيث أصبح الإنسان له راتب طيب أو دخل مناسب ولكنه ممحوق البركة ، ولذلك أسباب عديدة منها: الربا ، الذي هو حرب على الله ورسوله ، والذي درهم منه أشد من ست وثلاثين زنية ، ومنها عدم الإخلاص في العمل أو الوظيفة ، فقليل من الناس اليوم من يأخذ راتبه حلالاً زلالاً قد أدى عمله على أتم وجه ، بل تجد التمرد والإهمال ، والغياب ، والكسل ، والتأخر ، إلى غير ذلك من التفريط في حق العمل . ومنها عدم أداء الزكاة التي هي مطهرة للمال والرزق ونماءٌ له وبركة فيه ، ومنها عدم صدق النية في البيع والشراء ، فإن صدق البيعان وبيّنا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا فعسى أن يربحا ربحاً ويُمْحقا بركة بيعهما .

٢ – الصدق بين الشركاء ، يقول ﷺ :« قال الله تعالى :أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه فإذا خانه خرجت من بينهما » [رواه ابو داود] ، ومنها إنفاق السلعة بالحلف الكاذب ، قال ﷺ : « اليمين الفاجرة منفقة للسلعة ممحقة للكسب » [رواه أحمد].

٣ – التورط في مشاريع دون دراسة : لا بد للإنسان قبل أن يقدم على أي مشروع صغير كان أو كبير أن يدرسه دراسة وافية من جميع جوانبه حتى لا يزج بنفسه في أمر لا تحمد عواقبه ، وبتجارة لا تفلح فكرتها ؛ فلا بد من دراسة الجدوى ، ومعرفة الثمرة ، وحساب النتيجة .

٤ – عدم التفكير وإعمال الذهن ، وإيقاد القريحة : فالتجارة تحتاج إلى همة عالية ، وذهن متوقد ، وترقب للفرص ، وذكاء في العرض ، وتريث في الطلب . وحسن النية وحده لا يكفي في التجارة .

٥ – استعجال الربح : فبعض الناس يبدأ بمحل تجاري ، ويظن أن الأرباح ستنكب عليه من أول شهر أو شهرين ، فإذا لم يجد شيئاً أغلق متجره وأنشأ متجراً آخر ، وهكذا حتى يورط نفسه، وكان الأولى له الصبر والتريث ، فإن الأمر يحتاج إلى زمن . والإنسان لكي يؤسس محلاً وعلاقات وزبائن يحتاج إلى سنوات وليس إلى أشهر .

٦ – التورط في مسألة التقسيط : ظناً من الناس أنها حل ومخرج من الورطات ، وهي في الحقيقة عناءٌ إلى عناء وهم إلى هم ، ويجب أن لا يلجأ إليها إلا في الضرورة القصوى إذا بارت الحيل .

٧ – الإغراق في الكماليات التي لا ضرورة لها : والواجب على المسلم أن يقتصد في الإنفاق ، ولا يشتري إلا ما تدعو إليه الضرورة ، فإن الرضا بالقليل خير من العيش وأنت ذليل .

٨ – مجاراة الواقع في كثير من الأمور : كالبذخ في حفلات الزواج وغيرها ، وكالأسفار بالعوائل إلى أمكنة بعيدة ؛ فالأسفار مكلفة جداً ، ومتلفة للمال ، والواجب أن لا يُحَمّل الإنسان نفسه ما لا يطيق لكي يرضي فلاناً أو فلانة ، ويجاري علاناً أو علانة .

٩ – ترك المبالغ الكبيرة في المحفظة ، فإن المال كلما كان سهل التناول يضيع ويذهب ، ولا يتردد الإنسان في شراء أي شيء يراه ، فالأحسن أن لا تبقي في محفظتك إلا مبلغاً يسيراً . وإذا استغنيت عن بطاقة الصراف فذلك أفضل وأفضل ، فلها من اسمها نصيب فهي صراف متلاف .

١٠ – لا تكثر التردد على الأسواق الكبيرة المسماة بـ « السوبر ماركت » فهي أشبه شيءٍ بالسحر ، تدخل لتشتري منها بريال أو خمسة فتخرج وقد صرفت خمسمائة ريال .

١١ – عدم وضع ميزانية معيشة للمصروف ، حيث لا يتجاوزها الإنسان إلا للضرورة .

هذه بعض النصائح الموجزة لمن أراد أن يحفظ نفسه وماله ، ولا يتعرض لهم الدين وقهر الرجال .

مع كل ما ذكر فليس الدين إذا كان في محله عيباً ، وليس نقصاً للمروءة ، فقد استدان أشرف الخلق ﷺ ومات ودرعه مرهونة في ثلاثين صاعاً من شعير ، والله تعالى يقول : ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ،

والقرض قربة ومثوبة للإنسان وصدقه ، وهو من باب تنفيس الكرب على الناس . وفي الحديث أن النبي ﷺ قال : «من أنظر معسراً ، فله بكل يوم مثله صدقة ، قبل أن يحل الدَّين ، فإذا حلَّ الدين فأنظره ، فله بكل يوم مثلاه صدقة» . [الصحيحة : ٨٦]

ولكن المشكلة الكبرى هي في تورط بعض الناس في كثير من الديون التي كانوا في غنىً عنها ولم تلجئهم إليها ضرورة ، ولم تدعهم حاجة ، فأوقعوا أنفسهم في حرج ، وعاشوا حياتهم في نكد، وعجزوا عن الوفاء لأصحاب الديون ، مما جعل أكثر الناس لا يقرض أحداً أبداً مهما كانت الظروف ، نتيجة لما رآه من عدم الوفاء والحياء. ونختم الكلام بهذه الأحاديث الرائعة الماتعة لأصحاب الأموال الكثيرة، والنفوس الطيبة ، والقلوب المؤمنة .

قال ﷺ : «إن رجلاً لم يعمل خيراً قط ، وكان يداين الناس ، فيقول لرسوله : خذ ما تيسر ، واترك ما عسر ، وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا ، فلما هلك قال الله له : هل عملت خيراً قط؟ قال : لا إلا أنه كان لي غلام وكنت أداين الناس ، فإذا بعثته يتقاضى قلت له: خذ ما تيسر ، واترك ما عسر ، وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا ، قال الله تعالى : قد تجاوزت عنك»

[رواه النسائي]

وقال ﷺ : «حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يغالط الناس وكان موسراً فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر ، قال الله تعالى : نحن أحق بذلك منه تجاوزوا عنه»

[رواه مسلم]

ويقول ﷺ : «من يسر على معسر في الدنيا يسر الله عليه في الدنيا والآخرة» [رواه ابن ماجة].

ويقول ﷺ : «من أنظر معسراً أو وضع له ، أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله» [رواه الترمذي].

سبحانه ما أرحمه وأحلمه وأكرمه!! ، يظلّ العبد تحت ظل عرشه يوم القيامة لماذا؟ ؛ لأنه أنظر عبداً معسراً من عباد الله ، فله الحمد على عطائه ، وله الفضل على كرمه وجوده .

وختاماً إليك هذا التوجيه النبوي الكريم ، والحديث الماتع العظيم ، يقول ﷺ : «اللهم رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم . ربنا ورب كل شيء . فالق الحب والنوى ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته . اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء . وأنت الآخر فليس بعدك شيء . وأنت الظاهر فليس فوقك شيء . وأنت الباطن فليس دونك شيء . اقْضِ عنّا الدَّيْنَ وأغننا من الفقر» [رواه مسلم : ٢٧١٣] .

أنت غنيٌ ولست فقيراً

يقول ﷺ : «انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم» [رواه ابن ماجة].

هذه لفتةٌ عظيمة ، وفكرة قويمة ، وتوجيه سديد ، ورأي رشيد ، إننا حينما ننظر إلى أحوال الناس ، نجد أن أكثرهم قد أصيب بإحباط وعاش في قلق ، وتلظى في نكد ، وبقي في شقاء . وماذاك إلا بسبب نظرهم إلى من هم فوقهم ، وتطلعهم إلى ما بأيدي غيرهم ، وظنهم أن أولئك هم السعداء بما في أيديهم ، وأنهم هم الأشقياء المعدمون ، فينعكس ذلك في نفوسهم ، ويقلل من شكرهم لربهم ، ومعرفتهم بأنفسهم ، ويؤثر في حياتهم ، ويثبط من سيرهم . وإن الإنسان يستطيع أن يعيش سعيداً ، ويحيا غنياً ، ولو لم يكن لديه شيء من مباهج الحياة وزينتها ؛ فالسعادة سعادة القلب ، والبهجة بهجة النفس وتمام النعمة في الدين ، وكمال المنة بالإيمان ؛ والسرور بالحياة هو بحسن النظر إليها ، وفن التعايش معها ، وأن يرضى المرء بالقليل ، ويشكر على الكثير ، ولا يتيه فرحاً بموجود ، ولا يموت أسىً على مفقود ، وما من أحد إلا ولله عليه منة ، وله عليه نعمة ، قال سبحانه: ﴿ **قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ [تبارك : ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ **أَلَمْ نَجْعَل**

﴿لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد : ١٠].

فليعلم المرء مهما كان مكانه ، ومهما قل إمكانه ، أن نعم الباري عليه عظيمة ، ومنن المولى عليه جسيمة ، قال تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم : ٣٤].

أليس من السعادة أن ينطلق المرء من بيته معافىً في جسده ، سليماً في عقله ، متمتعاً بجوارحه ، يسعد باستنشاق الهواء العليل ، وشم الزهور العبقه ، والروائح الطيبة؟!.

يسعد بالنظر إلى الشمس وتأمل أشعتها الذهبية ، بمنظر إشراقها ومنظر غروبها ؛ يسعد بانطلاق لسانه وقدرته على الكلام ، وتحدثه مع الآخرين ، وإفصاحه عن حاجته ، وإبانته عن مكنونه ، وتعبيره عما يجيش في صدره .

يسعد بسماع الأصوات الجميلة والأحاديث المختلفة ؛ يلتقط ترانيم الأذان ، ويتذوق حلاوة القرآن .

يسعد بقدميه السليمتين ، ويديه القويتين ؛ يسعد بحسن تفكيره ، ورجاحة عقله ، وروعة أدائه ، يسعد بتأمل الطبيعة الغناء ، والمناظر الساحرة ، بالطيور المغردة ، بالشمس المشرقة ، بالبدر المنير ، بالنجوم الساحرة ، بالجبال الشاهقة ، بالأنهار الجارية ، بالمروج الخضراء ، بالحيوانات العديدة ، والمخلوقات المتنوعة .

يسعد بأولاده ، ببناته ، بإخوانه ، بأخواته ، بزوجته ، بأمه ، بأبيه

بأقاربه ، أليست هذه كلها سعادة ، وجميعها سرور؟! ، إنك تمتلك الملايين المملينة ، ولكن لا تشعر بذلك ، فإذا أردت أن تشعر به فانظر إلى بصرك هل تبيعه بملايين الريالات ؟ وهل تبيع ساقيك بملايين الريالات ؟ وهل تبيع سمعك بملايين الريالات ؟ وهل تبيع يديك بملايين الريالات ؟ وهل تبيع أبناءك أو عائلتك بملايين الريالات ؟ وهل تبيع جهازك الهضمي أو لسانك أو قلبك السليم بملايين الريالات ؟ كَلاَّ لن تفعل ذلك! . إذاً أنت تملك ما يساوي ملايين الريالات بل بلايين الريالات ، فأنت غني ولست فقيراً ، وأنت سعيد ولست شقياً . فلو أن المرء يتفكر فيما وهبه الله من النعم لما نغص حياته ، وأتعب نفسه في التفكير البائس ، والهم القاتل بالنظر فيما عند الآخرين .

دخل رجل في تجارة فأفلست تجارته ، وفشلت تجربته ، وتحمل ديوناً ثقيلة ، وأعباء جسيمة ، فضاقت به نفسه ، وتنغص عيشه . وبينما هو يمشي في طريقه قد ملأ الأسى قلبه ، وسكن الغم فؤاده ، واستولى القلق على حياته ، إذا به يرى رجلاً مبتور الساقين يمضي على عربة يحركها بيديه وهو يعبر الشارع ، فلما اقترب منه ناداه والابتسامة العريضة على شفتيه قائلاً له : صباح الخير ، إنه صباح جميل ، ويوم سعيد أليس كذلك ؟ يقول الرجل فخجلت من نفسي واستحقرت موقفي ، واستعدت همتي ، وقلت : الحمد لله أن معي ساقين سليمتين وأستطيع أن أمشي وأتنقل في حرية ، إذاً لماذا الهم ؟ ولماذا القلق وأنا أمتلك هذه الثروة الكبيرة؟! .

فيجب على الإنسان لكي يسعد بالحياة أن يعدد أشياءه المباركة ، وليس متاعبه ، وأن ينظر إلى مكاسبه فيها وليس إلى خسائره ، بل حتى المصائب والكوارث يجب أن ينظر إلى الجانب الإيجابي فيها ، فهي لا تخلو من ذلك ، ولولم يكن إلا أجر الصبر عليها ، وثواب احتسابها لكفى به عزاءً ، قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً** ﴾ [لقمان : ٢٠].

كان ﷺ يربط الحجارة على بطنه من الجوع ، ويمكث الشهر والشهرين لا يوقد في بيته نار ، ويخرجه الجوع من بيته أحياناً كثيرة وقتل أصحابه ، ومزق بعض أتباعه ، وفقد كثيراً من أحبابه ؛ حلت به الكوارث ونزلت به المصائب ، ولم يكن له مركب فاره ، ولا قصر فاخر ، ولا رصيد متضخم ، ومع ذلك قال له الله تعالى : ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي** ﴾ [المائدة : ٣] فأيّ نعمة تلك وقد نام على الحصير حتى أثّر في جنبه ؟ إن النعم إذاً لا ينظر فيها إلى الجوانب المادية فقط ؛ فهنالك نعمٌ أجل ومنن أكبر.

وقال ﷺ حينما سئل عن كثرة قيامه حتى تفطرت قدماه ، قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » [رواه البخاري ومسلم] .

ولقد عاش ﷺ أسعد إنسان : أسعد نفسه ، وأسعد من حوله ، وهو لم يمتلك من حطام الدنيا شيئاً ، فليست المنة بالمال وحده والثراء أو

الممتلكات ، فالإيمان نعمة بل أعظم نعمة ، والحياة نعمة ، والجوارح والعافية نعمة ، والعقل نعمة ، والتوفيق للعبادة نعمة .

مما روي أن عبداً عبد الله خمسمائة سنة فيوقف يوم القيامة ويقول الله : ادخلوا عبدي الجنة برحمتي ، فيقول : بل بعملي ، فيقول الله : قايسوا عبدي بنعمتي عليه وبعمله فوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادته خمسمائة سنة ، وبقيّة نعم الجسد فضلاً عليه ، فيقول : ادخلوا عبدي النار ، فيجر إلى النار ، فينادي : رب برحمتك أدخلني الجنة ، فيقول: ردوه ، فيدخله الله الجنة برحمته .

إن الإنسان المبتهج بالحياة يزيده الابتهاج بالحياة قوة فيكون أقدر على الجد وحسن الإنتاج ومقابلة الصعاب ، وما الحياة وما قيمتها ؟ وما الدنيا وما أهميتها ؟ ، لو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء . فهي مرحلة عابرة ، ورحلة قصيرة ، لا تستحق أن ينغص الإنسان فيها نفسه بكثير التحسر على ما فات منها والألم على مباهجها ؛ حرامُها عقاب ، وحلالها حساب، وإن الأكثرين في الدنيا هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال بالمال هكذا وهكذا – بالصدقة ووجوه الخير – عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ، وقليل ما هم ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ [يونس : ٥٨].

فيجب على المسلم أن لا يكثر الهموم على نفسه ، فالدنيا لا تستحق ذلك ، يجب أن يكون همه في الآخرة في يوم الوقوف على الله، في ظلمة القبر ، في النفخ في الصور ، في يوم كان مقداره خمسين ألف

سنة ، هنالك « يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة ثم يقال : يا بن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول : لا والله يا رب . ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة ، فيقال له : يا بن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مر بك شدّة قط ؟ فيقول : لا والله ، ما مرّ بي بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط » [رواه مسلم].

يقول ﷺ : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنّعه الله بما آتاه » [رواه مسلم].

نسأله تعالى أن يقنعنا بما آتانا ، وأن يجعلنا من الشاكرين لنعمه المعترفين بكرمه .

في الحديث المروي عنه ﷺ أنه قال : « من أصبح منكم آمناً في سربه معافىً في جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »

[رواه الترمذي وابن ماجة]

قال هارون الرشيد – رحمه الله – لرجل : عظني ، فأراد الرجل أن يذكره بنعم الله عليه ، وكان الرشيد قد أُتي بماء ليشربه ، وقد أمسكه بيده ، فقال له : « يا أمير المؤمنين لو حُبِستْ عنك هذه الشربة وُمنعت منها أكُنت تفديها بملكك؟ ، قال : نعم ، قال : فلو شربتها وحبس عنك إخراجها أكنت تفديها بملكك؟ ، قال : نعم ، قال فما خيرٌ في ملك لا يساوي شَرْبة ولا بَوْلة » .

وإن هنالك من النماذج العظيمة في تاريخنا ما يسلي النفس ، ويسعد الخاطر ، ويثير العجب من أناس أيقنوا حقيقة النعم التي وهبوها ، والمنن التي منحوها ، فكانوا مثالاً في الشكر ونماذج في الصبر .

عروة بن الزبير رضي الله عنه لما نصحه الأطباء ببتر قدمه فبترت نظر إليها وهي مبتورة فقال : « الله يعلم أني ما مشيت بك إلى معصية » ثم مات أحب أولاده إليه في نفس اليوم ، فابتهل إلى ربه قائلاً : « اللهم لك الحمد على ما قضيت ، كان لي أربعة أطراف فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة، وأعطيتني أربعة أبناء فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة ، فلك الشكر على ما أعطيت والحمد على ما قضيت » .

ومرّ أناس برجل يوم القادسية وقد قطعت يداه ورجلاه وهو يضحك ، ويقول : « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » .

ودخل رجل على رجل قد نزلت به بلوى عظيمة ومرض شديد ، فقال له كيف تجدك؟ قال : أجد عافيته أكثر مما ابتلاني به ، وأجد نعمه عليّ أكثر من أن أحصيها ، ثم بكى ، وقال : أسلي نفسي عن ألم ما بي بما وعد عليه سيدي أهل الصبر ، من كمال الأجور في مشهد يوم عسير.

ودخل رجل على مريض قد أكلت الأكلة أطرافه ، فقال له : كيف أصبحت ، قال : أصبحت والله وكل عضو مني يألم على حِدَته من الوجع لو أن الروم في شركها وكفرها اطّلعت علي لرحمتني مما أنا فيه ،

وإن ذلك لبعين الله أَحَبُّه إليّ ، أحبُّه إلى الله ، وما قَدْرُ ما أخذ ربي مني؟ وددت أن ربي قد قطع مني الأنامل التي بها اكتسبت الإثم ، وأنه لم يبق مني إلا لساني يكون له ذاكراً .

ودخل رجل على إنسان مجذوم ، مقطوع اليدين والرجلين أعمى، فقال له : ألا أزوجك امرأة تنظفك من هذه الأقذار؟ فبكى ، ثم قال: تزوجني ومُلْك الدنيا وعروسها عندي ، فقال له : وما الذي عندك من ملك الدنيا وأنت مقطوع اليدين والرجلين أعمى؟ فقال : رضاي عن الله عز وجل إذ أبلى جوارحي وقطعها وأبقى لساني أذكره به .

والقصص كثيرة ، والعجائب عديدة عن أولئك العظماء الذين عرفوا حقيقة النعمة ، وعظمة الصبر ، وروعة الأجر ، قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ** ﴾ [التكاثر : ٨].

وقد أردنا من هذا كله تنبيه كثير من الناس ، الذين غفلوا عن شكر ربهم ونغّصوا حياتهم ، وأقلقوا أنفسهم ، وأرهقوا أفكارهم ، وجلبوا الهموم والغموم إلى حياتهم ، بكثرة نظرهم إلى ما عند الآخرين ، وتطلعهم لما في أيد غيرهم ، واعتبارهم أنفسهم محرومين أشقياء ، مع أن عندهم من النعم ولديهم من الملكات والطاقات ما يجعلهم يعيشون سعداء ، ويعدون أنفسهم أغنياء . وليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس . فاشكروا الله على نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة ، قال سبحانه : ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ** ﴾ .

وقد عدد الله تعالى بعضاً من نعمه على عباده ثم قال جل وعلا بعد ذلك: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل:٨٣].

اللهم اجعلنا من الشاكرين لنعمك، المعترفين بكرمك، المقدرين لجودك، السعداء بما أعطيتنا، الأغنياء بما وهبتنا.

obeikandl.com

obeikandl.com

قصة قارون

فتح الله عليه أبواب النعيم ، وسبل الرزق ، وطرق الكسب ، فعظمت أموالُه ، وكثرت كنوزُه ، وفاضت خزائنه ، وأوتي بسطة في الرزق ، ورخاءً في العيش ، وكثرة في المال ؛ فعاش في ترف وبذخ ، وكبرٍ وبطر ، وفخر وخيلاء . طغى وتجبّر ، فسق وتمرّد ، تطاول وتمادى، زاد نهمه ، وكثر خدمه ، وعظم حَشَمُه ، حتى ظن أن لن يقدر عليه أحد ، عميت بصيرته ، وعظم زهوه ، وزاد غروره ، واغتر به كثير من الناس ، ورنت إليه بعض الأبصار ، وتمنت مكانه فئام من البشرية . فلما بلغ الأمر مبلغه ، والفتنة أشُدَّها ، والتمادي منتهاه ، حلت العقوبة ، وكانت الفاجعة ، ونزلت الكارثة ، وعظمت العبرة .

فمن هو هذا الغني ، ومن يكون ذلك الثري ، وما قصته ، وكيف كانت نهايته؟!! .

استمع الآن إلى البيان المعجز ، والخبر الصادق ، والنبع الصافي ، ليروي لك القصة ، ويسرد لك الحكاية ، ويُعْلمك بالنهاية :

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ** ﴾ [القصص : ٧٦].

بدأت القصة بتحديد البطل ؛ فبطل القصة : قارون ، وحددت قومه ﴿ مِن قَوْمِ مُوسَى ﴾ ، ويقال إنه ابن عم موسى عليه السلام ، وقررت مسلكه مع قومه، فهو مسلك البغي ، وقررت سبب ذلك البغي ، وهو الثراء وكثرة الأموال .

فقارون موجود في زمن نبي من أنبياء الله وهو موسى عليه السلام ، وهنا إشارة إلى أمرين مهمين :

الأمـــر الأول : أن قارون لم يستفد من وجود هذا النبي الكريم ، ولم يتعظ بمواعظه ، ولم يستجب لدعوته ، ولم يتخلق بأخلاقه .

والأمر الثاني : الإشارة إلى أن قرابته لموسى ، وصلته به ، لم تغن عنه شيئاً من عذاب الله تعالى .

﴿ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ فلم يحدد نوع ذلك البغي ، وهذه إشارة على عظمته وشناعته وتنوعه . بغى عليهم بالكبر ، بغى عليهم باغتصاب أموالهم ، بغى عليهم بمنعهم حقوقهم في هذا المال ، بغى عليهم بالظلم بغى عليهم بكل ما تحمله كلمة البغي من معانٍ .

﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾ ، آتيناه فالرزق من عندنا ، والمال من لدنا ، وليس بمهارة قارون ، ولا بعلمه ولا بأفضليته، فالأرزاق بيد الله ، وهو الذي يقسم أرزاقه على عباده، وليس في إعطائه للعبد دلالة على رضاه عنه ، وليس في منعه عن العبد دلالة على سخطه

عليه ، بل قد يكون الأمر على العكس من ذلك .

هو الرزق لا حل لديك ولا ربطُ
ولا قلم يجدي عليك ولا خطُّ
فطير يطوف الأرض شرقاً ومغرباً
وآخرُ يعطى الطيبات ولا يخطو

يقال إن مفاتيح خزائن قارون إذا انتقل من مكان إلى مكان كانت تحمل على ستين بغلاً أغرَّ محجلاً .

هذا هو المشهد الأول من مشاهد القصة ، رجل من قوم موسى ، وصل إلى قمة الثراء ، بغى على قومه .

المشهد الثاني : مشهد أهل الخير والصلاح ، والنصح والإرشاد ، والعلم والهدى ، قاموا بمسئولية البلاغ ، وواجب النصيحة ، فحينما رأوا قارون تمادى في طغيانه ، وزاد في بغيه ، مع غرور واستئثار ، وبطر واستكبار ، حاولوا أن يثيروا فيه روح الخير ، وينبهوه من غفلته، فنصحوه أن لا يغويه المال ، ولا يغره الثراء ، فيحول بينه وبين الإحسان إلى قومه ، والمراقبة لربه ، والأخذ من الدنيا بنصيب ، ومن الآخرة بنصيب فإن لله حقاً ، وللناس حقاً ، وللنفس حقاً ، وللزوجة حقاً ، فيجب أن يعطي كل ذي حق حقه . ونهوه عن الفرح الذي يدفع إلى الزهو والغرور ، وبينوا له أن الله تعالى يمقت الفساد والمفسدين ، وأن هذا المال ظلٌّ زائل ووديعة مستردة ، فلا يفرح ولا يغتر ، بل يجب أن يتخذه وسيلة لقضاء مآربه في

الدنيا ، وطريقاً لسعادته في الآخرة . وقد أوجز القرآن لك الموعظة البليغة التي وعظ بها قارون ، فقال تعالى : ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ .

[القصص : ٧٧]

فماذا كانت ثمرة الموعظة ونتيجة النصيحة؟ ، أجابهم بجملة واحدة ولكنها تحمل شتى معاني الفساد والإفساد ، جملة تحمل في طياتها الكبر والبغي والطغيان ﴿ **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾ .

أوتيته بعلمي ، بمهارتي ، بقدراتي ، بأفضليتي واستحقاقي لهذا المال فكان متطاولاً في كلامه ، جافياً في رده ، جريئاً في مقولته ؛ مقولة المغرور المطموس الذي نسي مصدر النعمة ، وتنكر لصاحب الفضل ، وكفر بمن يستحق الشكر .

ولذلك جاء التهديد والإشارة بالوعيد ، والرد على مقولته الفاجرة، جاء ذلك قبل تمام الآية ، ونهاية القصة ، فقال تعالى : ﴿ **أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ** ﴾ [القصص : ٧٨].

كانت المشاهد الأولى تحكي البغي والتطاول ، والإعراض عن النصح ، والتعالي عن العظة ، والإصرار على الفساد ، والاغترار بالمال، والبطر الذي يقعد بالنفس عن الشكران .

ثم يجيء بعد ذلك مشهد من مشاهد القصة ، وهو المشهد الذي يخرج فيه قارون على قومه في زينته ، وكأنه بذلك يكيد للذين نصحوه ويستخف بمشاعرهم ، ويبالغ في إيلامهم ، فيخرج في منتهى الزينة ، وغاية الكبر ، ونهاية الغرور ، فتطير لذلك قلوب فريق من القوم ، وتتهاوى أنفسهم لمثل ما أوتي قارون ، ويرون أنه صاحب حظ عظيم ، وخيرٍ عميم . وذلك لأنهم أصحاب نظرية مادية ، وأفكار دنيوية .

﴿ **فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾ [القصص : ٧٩] .

وهنا يتدخل أهل العلم والحكمة مرة أخرى ، ويتأنقون في النصيحة، ويجتهدون في الموعظة ، قال تعالى : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ**﴾ [القصص : ٨٠].

فذكّروهم بالرجاء فيما عند الله ، والاعتزاز بثوابه ، والفرح بعبادته ، فيجب أن يكونوا أعلى نفساً ، وأكبر قلباً ، ﴿ **وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ** ﴾ ، الصابرون على معايير الناس ومقاييسهم ، الصابرون على فتنة الحياة وإغرائها ، الصابرون على الفقر ومعاناته ، الصابرون على شظف العيش ومقاساته ، الصابرون على الحرمان من كثير من متع الدنيا ، لأنهم علموا أن الصابرين يوفَّون أجورهم بغير حساب .

ثم يجيء المشهد المرعب في القصة ، مشهد الخاتمة المشينة ، والمصرع الوخيم ، والانتقام العظيم ، ﴿ **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ**

﴿يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١] .

هكذا كانت النهاية بعد أن عظمت الفتنة ، واشتدت المحنة . هذه نتيجة الكبر والبطر والغرور والخيلاء ، والجحود والإصرار ، والتالي على عباد الله ، ابتلعته الأرض ، وساخت فيها أمواله وقصوره .

يقول ﷺ : « بينا رجل فيمن كان قبلكم خرج في بردين أخضرين يختال فيهما ، أمر الله الأرض فأخذته ، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة » [رواه أحمد].

وبعد هذه النهاية الخاسرة ، أصبح الذين تمنوا مكان قارون يحمدون الله أن من عليهم ونجاهم من الخسف ، قال تعالى : ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص : ٨٢].

ثم تختم القصة بهذا المقطع الجميل الذي يؤكد أن الفوز والفلاح هو في الدار الآخرة وأن الله تعالى يجعل جناتها ونعيمها ، وأنسها وسرورها وأنهارها وحورها ، لأهل الإيمان والتواضع والتقوى والإحسان ، والبعد عن الفساد ، قال سبحانه : ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص : ٨٣].

بعض الدروس المستفادة من القصة :

١ – أن نسب الإنسان وحسبه لا يغني عنه من الله شيئاً .

٢ – أن الرزق هو من عند الله تعالى فهو مقدر الأقدار ، ومقسم الأرزاق .

أمـا ترى البـحـر والصـيـاد منتـصبٌ
لرزقـه ونجـوم الليل مـحـتـبكه
قـد غـاص في لجُّـة والموج يلطمـه
وعـينه لم تزل في كلكل الشـبكه
حـتى إذا بات مـسـروراً بليلتـه
بالحـوت قـد شق سـفُّـود الردى حنكه
شـراه منه الذي قـد بات ليلتـه
خِلْواً من البـرد في خـيـر من البـركـه
سـبـحـان ربي يعطي ذا ويحـرم ذا
هذا يصـيـد وهذا يأكل السـمكه

٣ – عدم الفرح بالدنيا ، فرح زهوٍ وكبر وغرور ، فإن هذه هي المهلكة الكبرى ، والداهية العظمى ، فالكبر والغرور عاقبتها وخيمة .

يقول أحد المتكبرين :

أتيـه على جن البـلاد وإنسـها
فلو لم أجـد خلقـاً لتـهت على نفسي
أتيـه فـمـا أدري من التـيـه من أنا
سـوى مـا يقـول الناس فيّ وفي جنسي

٤ – مقياس السعادة والسرور في الدنيا هو بطاعة الله تعالى والإحسان إلى عباده ، وليست السعادة ولا الريادة بكثرة الغنى .

٥ – أن الإسلام يدعو إلى إعمار الأرض والسير في مناكبها ، والأخذ بنصيب من الدنيا ، ولكن يجعل ذلك كله طريقاً إلى الدار الآخرة ، ويحسن الإنسان كما أحسن الله إليه .

٦ – أن الفساد وأهله ممقوتون بعيدون من محبة الله . فويل لمن سخَّروا أموالهم لإفساد عباد الله ، أين يذهب أصحاب الأموال الطائلة من ربهم ، وقد سخروا أموالهم في إفساد الناس ، ونشر الفاحشة ، والدعوة إلى الرذيلة؟! .

٧ – يجب على أهل العلم والخير أن يقوموا بمسئولية الدعوة وواجب النصيحة .

٨ – أن الصبر سبب للخير والفلاح ، والتوفيق والنجاح في الدنيا والآخرة.

٩ – أن العاقبة للمتقين ، والفوز للصالحين ، والآخرة للمؤمنين المجتهدين المتواضعين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،،